فى مرآة الأدب

سهل بن هرون

بقلم محمود محمد مصطفى
أستاذ الأدب العربى بكلية اللغة العربية

سنخص هذا الباب بذكر هؤلاء الذين عظم خطرهم وجل شأنهم فى الناحية التى أبرزتهم فيها الأيام . ندرس خصائصهم التى أهلتهم لهذا البروز ونتقرى فيهم أسباب هذا النبوغ الذى حفظ على الأيام اسمهم وأبقى رسمهم .

وانما نريد بتجلية أمور هؤلاء العظماء ما يريده كل مؤرخ من التنويه بذكر الرجال والاشادة بما لهم من الأعمال . وهو روح الأمل يبثها فى كل ناشىء وسبيل القدوة بنيره لكل سالك . وجانب الحقيقة يخدمه باذاعة فضل ستره أهله ووزن عبقرية جحدها عشراؤها واقامة حجة أدحضها الزمان وتعديل شهادة زيفها جائر الأحكام .

وانك لواجد فى سهل بن هرون كل هذه النواحى فهو رجل له خطره فى الأدب والحكمة وله أثره فى سمو النفس وعلو الهمة وكذلك جرى عليه حكم الأيام فى دروس المعالم وخفاء الآثار فصرنا لا نجد فى التعريف به إلا أسطراً قليلة فى أوسع الكتب مادة وأحفلها بتاريخ الأدباء والعظماء

* * *

سهل فارسى الأصل من أهل ميسان وهى كورة بين الأهواز وواسط والبصرة . ولقد كان لفارسيته هذه أثر عظيم فى كل ماصار إليه من فضل ، فهو نسل هؤلاء الكرام أمة المدنية والآداب والعلم والملك والسياسة والحذق نشأ يحمل دماء آبائه العظماء . وقد نشأ فى الولاء

او شبهه فى مستهل حكم العباسيين حين كان هذا الولاء رحمة عظيمة للموالى وكنفا ممرعا يرتع فيه ناشئهم وينعم بخيره كبيرهم ، إذ العباسيون قد اطرحوا الأنفة المنكرة وجانبوا النعرة الطائشة وخلطوا أنفسهم بمواليهم وعشرائهم من أهل البلاد المفتوحة ولا سيما الفرس ، ولكن القيد ذل ولو كان من ذهب . فكان هم سهل ومن على شاكلته من الموالى أن يطلب الرفعة من طريق العلم ينص فى طلبه عزيمته وينضى مواهبه وعبقريته ، يأخذه أبوه بذلك أيام طفولته لما يرى من دولة العلم القائمة وحلبة الفضل المتساوقة ودسوت الوزاره تهيأ لكل ذى قلم فارع ، وأدب بارع ، ومجالس الخلفاء تثنى فيها الوسائد لكل عالم بان خطره وجل قدره .

وهكذا كانت نشأة سهل بن هرون بن راهبون فانه بعد أن ولد بميسان كما ذكرنا أعد لطلب العلم فانتقل إلى البصرة ، ولم تكن تنهض به حين ذاك إلا البصرة ، عش العلماء ، ومنتدى الأدباء ، ومربدها عكاظ الشعراء ، وحلقات مساجدها منتضل الآراء ، لا تسمع بعالم أو أديب ، أو كاتب أو شاعر ، أو نحوى أو فيلسوف . إبان نشأة سهل إلا والبصرة منشؤه ومباءته ، وكل طارق على بغداد بعد ذلك فان البصرة منزعه ، ثم هى بعد منقلبه . فالخليل بن أحمد وسيبويه ، والأصمعى وأبو عبيدة ، وخلف الأحمر من اللغويين والنحاة ، وواصل به عطاء وابراهيم بن سيار النظام من العلماء والمتكلمين ، وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبة من الخطباء ، وبشار وأبو نواس وغيرهما من الشعراء كل أولئك عاشوا بها مجتمعين أو متعاقبين .

* * *

طلب سهل العلم الذى يسهل طلبه ويقبل موقعه ، وتكثر نواحى الاستفادة به ، وهو الأدب وما يتبعه من كتابة وشعر ودراسة للعلوم

الكونية ، ذلك أن هذا النوع من الطلب يتيسر لكل طالب ويضمن النجاح فيه لكل سالك ، فأقل ما يطمع فيه الكاتب أن يكتب لوالٍ من الولاة ، أو لسرى من الأسرياء ، يتولى تدبير شأنه ، وينشيء رسائله (وما أكثر ما يرغب هؤلاء فى التفوق فى رسائلهم) ويتلقى ما يرد إليه ويحسب دخلة ومصرفه . هذا مطمع كثير ممن يتناولون الكتابة ويدرجون عليها ، وإذا غلب على احدهم الشعر فهو أيضا باب للرزق كان مفتوحاً على مصراعيه فى تلك الأيام. يقصد أحدهم والياً فى عمله أو عظيما فى قومه أو قائداً فى ثغره والقوم يومئذ عرب ، تهزهم الأريحية ويملك مسامعهم الكلام المنمق ، والقول المدبج .

وما نريد بقولنا هذا أن اللغة والنحو كانا كأسدين أو أن الموالى لاغناء لهم فيها ما نريد ذلك فان من علماء اللغة والنحويين من أربى فى المنزلة وحصل من الثروة مالم يكن لشاعر من أقرب المقربين ، وأنت إذا تتبعت أخبار الخلفاء والوزراء رأيت مجالسهم لهؤلاء وعنايتهم بشأنهم لا تقل عن احتفالهم بالشعراء وجلوسهم لهم . وقل أن تسمع بشاعر أرسل الخليفة فى طلبه وأمر بحمله اليه على أوطأ مركب وأحسن حال فالشعراء هم الذين كانوا يقصدون الخلفاء ويقفون بأبوابهم ويحتالون فى الوصول إليهم حتى إذا وصلوا ملئت أفواههم درآ او حجورهم بدراً

فأما العلماء فلهم زماتهم ووقارهم ولهم تصونهم حتى يطلبوا فتعد لهم البرد ويفدون أكرم وفادة ثم يكون لهم فى مجلس واحد الغنى الذى يبقى فى أعقابهم ويتصل فى ذرياتهم . وما أجدرنا أن نسجل فضل خلفاء المسلمين فى هذا الباب لولا أننا نكون قد خرجنا عما رسمناه لأنفسنا من الحديث عن سهل بن هرون

ولم يمنع سهلا من الاشتغال باللغة والنحو أعجميته فقد كان من علمائهما

كثير من الأعاجم بل الأعاجم الذين يرتضخون لكنة فقد كان أبو عبيدة معمر بن المثنى الذى أحاط بعلم العرب وأخبارهم وأنسابهم والذى روى جميع أيامهم — كان على سعة علمه باللغة إذا أنشد بيتاً لم يقم إعرابه ، إذاً لم يوجه سهلا إلى ما نشأ فيه من الأدب والشعر والحكمة إلا محض ميله ورائد استعداده .

ذكروا أنه كان أديباً ، كاتباً ، شاعراً ، حكيما . فأما كتابته فظاهرة كل الظهور فى رسائله التى سمح بها الزمن وفيها على قلتها متعة وجمال يزيد فيه الحسن بتكرار النظر ويتجلى إبداع الفن مع انطماس الأثر . وسنفرد لها كلا مافى هذه الترجمة

وأما شعره فلم نعثر منه على كثير تمتلىء به اليد ويستطاع به الحكم ولكنه من الشعر الذى جنت عليه الفلسفة ، والفلسفة غنية بالمعنى فقيرة فى اللفظ تلف السرب من بناتها فى ملاءة وتجمع الرهط من أبنائها فى عباءة والطبع العربى كريم متخرق فى كرمه يمنح المعنى الواحد الكثير من كلمه . هذا ماجعل شعر سهل وغيره من أهل نزعته لايمثل فضلهم ولا يبرهن على نبوغهم فانظر إليه حين يقول

إذا أمرؤ ضاق عنى لم يضق خلقى ... عن أن يرانى غنيا عنه بالياس
لا أطلب المال كى أغنى بفضلته ... ما كان مطلبه فقرا من الناس

وأنا أقسم عليك (أيها القارىء) بالأدب الذى تنشده أن تديم النظر فى هذين البيتين وأن تكرر تلاوتهما وتطلب المعنى فيهما قبل أن تنظر فى شرحى لهما حتى تتحقق قولى وتثبت حكمى الذى قدمته من ظلم الفلاسفة للغة وإرهاق عباراتها القصيرة بالمعانى الجرارة فيكتفون بالسطر الواحد فيما يحتاج فى خدمته إلى باب وبالفقرة فيما لايحزىء فيه كتاب .

يقول سهل فى هذين البيتين : إذا صادفت إنسانا زمن المروءة ،

ضيق العطن ، كز الأنامل ، يرى الجود مرزأة ويعد البخل مغنما فحين أقصده يتجهم لى ويقطب ما بين عينيه ويعتل بغياب المال ، وكثرة العيال ويضيق بى ذرعا ويحاول لى بكل وسيلة دفعا — إذا صادفت مثل هذا وجدت فى كرم نفسى منأى عن أذاه ، وفى عفتى غنى عن غ اه . فصدرت عنه يائسا محتقراً عطاءه ، زاريا على المال وما يجر وراءه .

وهكذا شأنى أصدف عن المال وهو غاية كل حى يقضى به لبانته ، ويستوفى من اللذة حاجته ، أصدف عن المال وأعف عن طلبه والتماسه من الناس إذا كان ذلك سيوقعنى فيما لقيته من هذا الشحيح الذى أشاح بوجهه عنى وحقر كرامتى وطاش من عزتى فصدرت عنه بذل السؤال ، وخيبة الآمال .

ولن يتم لك فهم معنى هذا الشعر حتى تحتاج أن يقول لك قائل إن « ما » فى قوله « ما كان مطلبه فقراً من الناس » مصدرية ظرفية تدل على معنى المدة وتسبك الفعل بعدها بمصدر وأن معنى البيت وترتيبه هكذا .

لا أطلب المال . . . مدة كون طلبه من الناس فقراً أى فيه ما فى الفقر من الذلة والهوان .

وبعد فما أظن أننا أسرفنا فى شرح هذين البيتين أو تزيدنا على قائلهما فيما قصد من معنى احتيالا على الأطالة فى الشرح وتدعيما لدعوانا من أن السطر من شعر الفلاسفة يحتاج إلى باب يعقد لتوضيحه وبيان مراميه .

سهل والحكمة

أما الحكمة فى حياة سهل فلها تاريخ طويل وآثار كبار . ذلك أنه قد اتفق فى نشأة سهل أن كانت سوق الحكمة رائجة وسبيلها مهيعاً

أظل الناس عهد الدولة العباسية وقد نسى العرب بداوتهم وتحللوا من خشونتهم وخالطوا عشراءهم وماجت بهذه العناصر المتمازجة مدنهم ، ورسخت على الأيام قدم مدنيتهم فلم يجدوا بدا من هذه الضرورة اللازمة

للدنية وهى العلم وفيه الطب لعلاج الأبدان والحكمة لأصلاح النفوس وتصحيح الأفهام والحساب لضبط أموالهم والهيئة لحساب أيامهم واهتداء ربابينهم فى بحورهم

فكان من أبى جعفر المنصور ثانى خلفاء العباسيين أن ندب الناس للنظر فى كتب القوم وترجمة ماتحفز إليه الحاجة ، وكان منه على شدة بخله جود كثير حتى إنه أعطى جرجيس بن بختيشوع رأس أطباء نيسابور عشرة آلاف دينار وأمره أن يترجم فى الطب . كذلك ترجم له ابن المقفع كتاب المقولات ، وكتاب تحليل القياس لأرسطو ، وكتاب إيساغوجى الذى ألفه فرفريوس الصورى وجعله المدخل إلى كتب أرسطو المنطقية وأشهر ماترجمه ابن المقفع أو هو الكتاب الباقى من آثاره للآن ، كتاب كليلة ودمنة الذى ذاعت له شهرة كبيرة فى أيامه وبعد ذلك حتى نظم شعرا ليسهل تلقينه لأولاد الملوك والأمراء ، وممن جعله شعرا فى العهود الأولى أبان بن عبد الحميد اللاحقى رجل البرامكة ، ومعلم أولادهم ومن قوله فيه :

هذا كتاب أدب وحكمة وهو الذى يدعى كليله دمنه
فيه ضلالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم حكاية عن ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله والسخفاء يشتهون هزله
وهو على هذا يسير الحفظ لذ على اللسان عند اللفظ

ثم كانت أيام الرشيد ، وقد بلغت الدولة أوجها غنى ونظاما وقوة فراجت الترجمة فى أيامه ، وأعان عليها البرامكة ، أسبق الناس إلى الفضل وأعرفهم بقدر العلم ، فحركوا من همة الرشيد ، وجادوا من تلقاء أنفسهم فيما ترجم برسمهم ، حتى يقال أنهم أعطوا وزن الكتاب المترجم ذهبا .

وكان من عناية الرشيد بالترجمة أن أنشأ ببغداد داراً سماها دار الحكمة جمع فيها كل ماعثر عليه فى ذلك الحين من كتب هندية وفارسية ويونانية .

وقد احتجنا إلى هذا الاستطراد ، لأن لحياة سهل اتصالا وثيقا به ، فأنهم ذكروا أنه تولى دار الحكمة على أيام المأمون ، فكان إليه تدبيرها ، ولا شك أنها كانت على أيام المأمون أكثر محتويات منها على أيام الرشيد ، فأن همة المأمون فى الترجمة مشهورة ذائعة ، حتى إن المروى عن البرامكة من جعل أجر الكتاب المترجم ، وزنه ذهبا ينسب فى كثير من الكتب إلى المأمون لا البرامكة .

والمأمون هو الذى بلغ من عنايته بالترجمة أن جعل للتراجمة مدرسة يتعلم فيها أبناء العرب اللغات المختلفة حتى يجيدوا النقل عنها . وكان من آثار هذه المدرسة وكتبها المستعملة بها معاجم عربية يونانية وأخرى عربية لاتينية وضعت ليحذق بها أبناء العرب هذه اللغات . ويقال إن فى مكتبة الاسكوريال نسخا من هذه المعاجم .

ومن عنايته بالترجمة كذلك أن جعل للمترجمين يوما فى الأسبوع يجتمعون فيه بعلماء اللغة ليطلع هؤلاء على عملهم فيصححوه أو يقروه . وما أجدرنا أن ننسب إلى المأمون الفضل فى السبق إلى انشاء المجامع اللغوية لأن مارسمه للقوم من عمل هذا اليوم فى الأسبوع هو الغاية الأخيرة من إنشاء المجامع اللغوية

وإذا قيس الغائب بالشاهد وأقرت الأمور فى نصبها ، كان سهل بن هرون رأس حكماء زمانه والعلم الفرد بينهم حتى جعل إليه أمر الحكمة يدبره فتترجم الكتب بأمره ، ويصار فى صوابها أو خطئها إليه . ثم هو بعد المؤتمن على هذه الناحية من العلم التى خصها المأمون بعنايته .

لم يكن سهل من هؤلاء العلماء البخلاء بعلمهم أو المجدبين فى نتاجهم

كما نرى من كثير منهم بيننا وأحدهم لا يدافع فى علمه ، ولا ينازع فى فضله ثم هو مجدب على خصب كالركاز باطنه يلمع ، وظاهره بلقع ، لم يكن سهل ممن يخلون على الناس بعلمهم ، أو لعله كان مضطراً إلى التأليف والترجمة ليدل الناس على ما عنده من فضل ولينال بذلك منزلة عند رجال الدولة على حين لا ينفع المرء إلا عمله فكان من أثاره كتاب ثُعلَة وعفرة . وكتاب النمر والثعلب وكتاب أسل بن أسل ، وكتاب اسباسيوس وكتاب المخزومى وكتاب الهذلية وغير ذلك ، وليس من كتبه هذه شيء بين أيدينا ، ولا وصفها أحد من المؤرخين حتى نعرف موضوعها شأن كثير من الكتب التى ضاعت وبقى منها وصف ما تحتويه ممن اطلع عليها . ولم يذكروا إلا أنه أخرج كتاب ثعلة وعفرة يعارض به كليلة ودمنة ، الذى طبقت شهرته وذاع صيته ، وقد حكم المسعودى بأنه يزيد على كليلة ودمنة بحسن نظمه ، ولم يذكروا منه إلا كلاما لا يدل على موضوع الكتاب لأن هذا المروى حكمة يصح أن تكون قد وردت فى أثناء كلام على لسان قائل وذلك لا يبين اتجاه الكتاب ولا يحد موضوعه ، وهل تستطيع الحكم على كليلة ودمنة إذا قرأت حكمة وردت على لسان كليلة أو دمنة أو الثور و الأسد مثلا فتستدل بها على روح الكتاب واتجاهه . وإليك فاسمع ماردده من كتاب ثعلة وعفرة « اجعلوا أداء مايجب عليكم من الحقوق مقدما قبل الذى تجودون به من تفضلكم ، فان تقديم النافلة مع الابطاء فى الفريضة شاهد على وهن العقيدة وتقصير الروية ، ومضر بالتدبير ، ومخل بالاختيار . وليس فى نفع تحمد به عوض من فساد المروءة ولزوم النقيصة » .

ولولا أن الجاحظ وهو من المعجبين جداً يسهل قد خلد لنا رسالته فى البخل فى كتابه البخلاء لكنا لا نعلم من سهل شيئا ولا نرى من كلامه أثرا

والآن فلنذكر النواحى الأدبية من سهل فنصف لك كتابته وما كان يؤثره من المعانى والأغراض فيها ، فنقول إذا صدق على كاتب فى أيام سهل بن هرون أنه نسيج وحده فأصدق ما يكون هذا القول على سهل ، وما ظنك بكاتب يجانب طريقة الناس ويشرع فى سبيل لم يعبدها أحد قبله ، ويطلب المعانى التى لم يفرعها كاتب سواه ، لقد عهدنا أن الاغراب قديماً كان باللفظ فيمعن الشاعر أو الكاتب وراء غريبه يطلبه فى مطارح البيد أو يعاظل فيه ويعتدى على المعهود من نظمه كما كان يفعل الفرزدق ومن على شاكلته يتلمس بذلك الشهرة ، ويرجو أن يغدو حديث الناس وموضوع جدلهم كما أراد ذلك المتنبي فيما بعد ودل على مراده بقوله :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر القوم جرّاها ويختصموا

على ان مثل المتنبي أضاف إلى الاغراب باللفظ الاغراب فى المعنى ولكن من ناحية غير ناحية سهل فأن المتنبي كان يعمد إلى المعنى الظاهر فيحذف من أجزائه ويعكس قضاياه ثم يمنحه من اللفظ مثله فى الاضطراب والغموض فيخرج المعنى السهل عويصاً منكراً ، فأما سهل فليس هذا شأنه ولكنه يعمد إلى الموضوع الذى لم يخطر على بال ، ولا عولج من قبل بمقال . فيفيض فيه ويتناول جميع نواحيه ويجعله بما يضرب فيه من مثل ، ويكثر من علل واضحاً جلياً مأنوساً وكأنك تقرأ منه حديثاً معاداً مكروراً . فتستمر مأخوذاً بسحر بيانه حتى تنتهى فاذا به قدسخر من عقلك وأقنعك بمحاله ، وألزمك حكم جداله . وإذا بك أمام زعم لا يقره عقل وقد آمنت به وأذعنت له . فلا يسعك إلا أن تستعيذ بالله من شيطان ، هذا البيان .

من منا يستسيغ أن يحكم لبذاذة الهيئة على اتساقها ولجهامة الخلقة على جمال الطلعة ، ولقذارة الثياب على نظافتها ولتطامن الذل على عز الكرامة ولكن سهلا سيجعل ذلك فى رأينا سائغاً سهلا حين نقرأ له :

« لو أن رجلين خطبا أو تحدثا ، أو احتجا ، أو وصفا وكان أحدهما جميلا بهيّا ولبّاسا نبيلا وذا حسب شريف . وكان الآخر قليلا قميئا وباذ الهيئة دميما وخامل الذكر مجهولا ، ثم كان كلامهما فى مقدار واحد من البلاغة ، وفى درب واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم يقضى للقليل الدميم ، على النبيل الجسيم . وللباذ الهيئة على ذى الهيئة ، ويشغلهم التعجب منه عن مناوأة صاحبه ، ولصار التعجب على مساواته له سبباً للتعجب منه ، والاكثار فى شأنه علة للاكثار فى مدحه : لأن النفوس كانت له أحقر ، ومن بيانه أيأس ، ومن حسده أبعد . فلما ظهر منه خلاف ماقدروه ، وتضاعف حسن الكلام فى صدورهم كبر فى عيونهم لأن الشيء من غير معدنه أغرب . وكلما كان أبعد فى الوهم كان أظرف ، وكلما كان أظرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع . وإنما ذلك كنوادر الصبيان ، وملح المجانين . فأن استغراب السامعين لذلك أعجب وتعجبهم منه أكثر ، والناس موكلون بتعظيم الغريب واستظراف البديع وليس لهم فى الموجود الراهن ولا فيما تحت قدرتهم ، من الرأى والهوى مثل الذى معهم فى الغريب القليل وفى النادر الشاذ . وعلى هذا السبيل يستظرفون القادم إليهم ويرحلون إلى النازح عنهم ويتركون من هو أعم نفعاً وأكثر فى وجوه العلم تصرفا وأخف مؤونة وأكثر فائدة . »

ولنقف عند هذا الحد فى هذا المقال مرجئين بقية البحث فى كتابته ونوادره الدالة على مقدار عقله إلى العدد الآتى إن شاء الله .